حبٌ... وحبّ!

حدّثني احد الأصدقاء الثِّقات، قال:

عدتُ ذات يوم إلى بيروت من باريس حيث اقطن منذ اكثر من ٢٦ سنة.

في مطار شارل دُه غول، قرأ الموظف الجمركي على جواز سفري: مكان الولادة: بيروت. فسألني: كيف الوضع في لبنان؟ اجبته: لا باس، وكل ما نتمنّاه ان يبقى، اقلّه، على حاله!

- منذ متى وانت تعيش في فرنسا؟

- انهيت للتو سنتي السادسة والعشرين.

- ومتى كانت المرة الأخيرة التي عدت فيها إلى لبنان؟

- منذ شهر واحد، لكي امضي فرصة الميلاد بين اسرتي اللبنانية.

حدّق الموظف في وجهي وهو يبتسم وقال:

- أيّا من البلدين تحب اكثر، لبنان ام فرنسا؟

- الفرق الذي اراه بين لبنان وفرنسا، هو تماماً كالفرق بين امي وزوجتي. زوجتي، اخترتها بنفسي، وافتُتنت بسحر جمالها، فاحببتها، ولكنها لا يسعها ان تنسيني امي في اي حال من الأحوال.

لم اخترْ امي، ولكنني اعلم انني انتمي إليها في عمق اعماقي، ولا ارتاح إلا بين ذراعيها ولا ابكي إلا على كتفها.

اغلق الموظف جواز سفري وحدّق في وجهي بدهشة ثم قال:

- كثيراً ما يُقال ان الحياة في لبنان جد صعبة، فانّى لك ان تحبّ هذا البلد إلى هذا الحدّ؟

- هل تعني بكلامك «امي»؟

ابتسم الموظف وقال: «لنفترض ذلك».

- قد تكون امي فقيرة محتاجة، وليس لديها ان تدفع به علاجي وأتعاب الطبيب، ولكن حنان حضنها عندما تضمّني إليها ودفء قلبها عندما اجد نفسي بين ذراعيها، يكفيان لشفائي.

- صف لي لبنان.

- ليس له جمال حسناء شقراء، ولكن رؤية محيّاه تطمئن خاطري. ليس له عينان زرقاوان، بيد ان رؤيته تُشيع في نفسي الأمان. ثيابه بلا زخرف، ولكنها تحمل في طياتها الرحمة والطيبة.

لا يزيّن نفسه بالذهب والفضة، ولكنه يرتدي قلادة حول عنقه. من سنابل القمح التي يطعمها كل جائع. نهبه اللصوص وقطّاع الطرق وظلت البسمة مرتسمة على وجهه.

اعاد الموظف إليّ جواز سفري قائلاً:

- انني اعرف لبنان من خلال شاشات التلفزة ولكنني لا اجد فيه شيئاً مما وصفته.

- شاهدت يا صاح، لبنان الخرائط الجغرافية. اما انا، فاتحدّث عن لبنان المخفيّ في قرارة نفسي.

- اتمنى ان تتجلى امانتك فرنسا كتلك التي للبنان. اقصد ان تتجلى امانتك لزوجتك كامانتك لامك.

- بيني وبين فرنسا عقد يلزم عليّ الأمانة، ولست ممن لا يخون بالعقود والوعود. وفي وذي لو تدرك انت ان تلك الأمانة علمتنيها امي! حضن الأم اجمل من المدارس واسماها. وهي علمتني الفضيلة التي هي ابنة الرحمة والرحمة روح الله!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه